

١ - محمود سامي البارودي

ديوان البارودي؛

(خاتمة الجزء الرابع)

ولد " محمود سامي البارودي " يوم الأحد ٢٧ من رجب سنة ١٢٥٥ هـ ، الموافق ٦ من أكتوبر سنة ١٨٣٩ م . وتوفي يوم الاثنين ٦ من شوال سنة ١٣٢٢ هـ الموافق ١٢ من ديسمبر سنة ١٩٠٤ م : وأصل ديوانه المخطوط الذي في أيدينا يملأ ٢١٤ صفحة من الفولسكاب . أتم نقله بقلمه " مصطفى عبد الخالق " يوم ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ . والقوافي التي نظم فيها البارودي شعره هي :

الهمزة ، والألف المقصورة ، والباء ، والتاء ، والثاء ، والجيم ، والحاء ، والدال ، والذال ، والراء ، والزاي ، والسين ، والشين ، والصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ، والعين ، والفاء ، والقاف ، والكاف ، واللام ، والميم ، والنون ، والهاء ، والواو ، والياء . وترتيبها في أصل الديوان يطابق ترتيب حروف الهجاء . وقد استغرقت كل الحروف الهجائية ما عدا الخاء ، والفين ، أما ترتيب القصائد والمقطوعات في كل قافية ، فيبدو لنا أنه من إعداد الناظم نفسه ، أو من إعداد غيره تحت إشرافه . ولا نعرف الأساس الذي بنى عليه هذا الترتيب .

ويعييب هذا الأصل كثير من تصحيحات الناسخ ، وتحريفاته . وفيه إلى هذا نقص ، وزيادة ، وتكرار ، وأخطاء إملائية ، ونحوية ، وإغوية . وأبيات مكسورة ، اختلت أوزانها ، وأفسدت معانيها ، وكلمات غامضة ، مستهمة ، مبتذلة ، لا تكشف للقارئ المتمرس إلا بجهد ، ومشقة ، واصطبار ، ومعاناة ... وفيه قصائد ، ومقطوعات ، وأبيات مطموسة ، عدتها خمسة وسبعون بيتاً ، كشفناها كلها . ما عدا ستة أبيات في قافية الباء ، بولغ في طمسها ، فلم نستطع قراءتها . وبحول الله

تبارك وتعالى وتوفيقه حققنا هذا الأصل ، وصححناه ، وضبطناه ، وشرحناه ،
وقربناه إلى الطالب ، ويسرناه كل التيسير . وفى أثناء الشرح نبهنا القارئ على
بعض ما صححناه وعالجناه ، من عيوب الأصل المخطوط ومناقضه ، وأفاته .
وأغفلنا الإشارة إلى كثير منها .

شرحنا الديوان كله فى أربعة أجزاء : الجزء الأول ١٥٥٢ بيت ، من أول قافية
الهمزة إلى نهاية قافية الذال فى ٣٢٧ صفحة . والثانى ١٧٢٣ بيت ، من أول قافية
الراء إلى نهاية قافية الكاف فى ٢٨٨ صفحة . وشاركت الأستاذ الجليل " على
الجارم " فى تحقيق هذين الجزأين ، وتصحيحهما ووضبطهما ، وشرحهما .
وطبعتهما مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة : الجزء الأول سنة ١٩٤٠ ثم الجزء
الثانى سنة ١٩٤٢ ثم طبعتهما بعدها المطبعة الأميرية بالقاهرة عدة طبعات . ثم
طبعتهما دار المعارف بمصر بتحقيقات ، وتكملات ، وزيادات قيمة ، ذات بال : الجزء
الأول فى يوليو سنة ١٩٧١ فى ٣١٦ صفحة . ثم الجزء الثانى فى إبريل سنة ١٩٧٢
فى ٤٠٠ صفحة .

ولما انتقل الأستاذ الجليل " على الجارم " إلى رحمة الله فى ١٩٤٩/٢/٨
انفردت بالعمل فى الجزأين الثالث والرابع ، وأخرجتهما دار المعارف : الجزء الثالث
من بدء قافية اللام إلى نهاية قافية الميم ١٣٠٧ بيت فى ٦٢٧ صفحة فى أغسطس
سنة ١٩٧٤ م . ثم الجزء الرابع من بدء قافية النون إلى نهاية قافية الياء ٧٢١ بيت
فى ٢٣٦ صفحة فى مايو سنة ١٩٧٥ .

وللبارودى فوق هذا كله قصيدة ميمية مطولة فى ٤٤٧ بيت ، نظمها فى مدح
النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وسمها : " كشف الغمة فى مدح سيد الأمة " .
وله أبيات أخرى لم تأت فى ديوانه . وفى أول الجزء الثالث شكرنا لكل من أعان على
إنجاز هذا الديوان ، وتيسير طبعه ونشره .

والحمد لله كما ينبغى لجلال وجهه ، وعظيم سلطانه .

٨ شارع المختار بالروضة بالقاهرة محمد شفيق معروف

وقال يذكر سفره مع الجند المصرى إلى جزيرة " أقریطش " سنة ثنتين
 وثمانين ومائتين وألف مجرية (١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥ م) حين خرج سكانها عن الطاعة ،
 ويعرض بأشياء فى نفسه ، ويتشوق إلى مصر :

وهفتا السرى بأعنة الفرسان
 فوق المتابع والرياح يجران
 إلا اشتعال أسنة الأبرار
 تسمو غواربها على الطوفان
 تهدأ سامرة ، وعزف قيان
 وتصيح أحراس ، ويهتف عاني
 فتسللوا من طاعة السلطان
 غير التماع البيض والخضمان
 والبحر أشكل ، والرماح لوانى
 لطبراد يوم كرهية ، ودهان

يتكلمون بالسن النيران
 عيناي بين ربا ، وبين محاني
 دُ أعنة . والماء أحمر قباني
 لتهاب ، فامتذعت على الأرسان
 تحنانها شجن من الأشجان
 ماء بمصر منازل الرومان؟
 خلفاً - يقول صاحب ومكان
 فى مصر كل روية مرتان
 شتى النماء ، كثيرة الألوان
 وطرحت فى اليمنى الغرام عناني

أخذ الكرى بمعاقد الأجدان
 والليل منشور النواذب ضارب
 لا تستبين العين فى ظلمائه
 نسرى به مابين لجة فتنة
 فى كل مربية ، وكل ثنية
 تسستن عادية ، ويصهل أجرد
 قوم أبى الشيطان إلا نزغهم
 ملئوا القضاء ، فما يبين لناظر
 فاليدر أكر ، والسماء مريضة
 والخيل واقفة على أرسائها

وصفوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا
 حتى إذا ما الصبح أسفر . وارتعت
 فإذا الجبال أسنة ، وإذا الوها
 فتوجست فرط الركاب ، ولم تكن
 فزعت . فرجعت الحنين ، وإنما
 ذكرت مواردها بمصر . وأين من
 والنفس مولعة - وإن هى صادفت
 فسقى السماك محلة ومقامة
 حتى تعود الأرض بعد محولها
 بلد خلعت بها عذار شيببتي

فصعیدها أحوى النبات ، وسرحها
فارتقتها طلباً لما هو كائن
حمل الزمان على مآلٍ أجنبه
نقموا على - وقد فتكت - شجاعتي
فليهنأ الدهرُ القيور بلرحلتى
فلقد رجعت وسوف أرجع واثقاً
صادقت بعض القوم حتى خائنى
زعم النصيحة - بعد أن بلغت به

فليجر بغدٌ كما أراد بنفسه
وكذا اللئيم إذا أصاب كرامة
كل امرئ يجرى على أعراقه
فعلام يلتمس العدو مساعتي ؟
أنا لا أذل ، وإنما يزغ الفتى
فليعلمن أخو الجهالة قصره
فلربما رجح الخسيس من الحمى
شرفاً خصصت به ، وأخطأ حاسد

ألى الظلال ، وزهرها متدانى
والمزء طوع تقليب الأزمان
إن الأمائل عرضةُ الحدثن
إن الشجاعة حيلةُ الفتیان
عن مصر ، واتهدأ صروف زمانى
بالله . أعلمت الزمان مكانى
وحفظت منه مغيبةً فرمانى
غشاً - وجازى الحق بالبهتان

إن الشقى منطيةُ الشيطان
عادى الصديق ، ومال بالإخوان
والطبع ليس يحول في الإنسان
من بعد ما عرف الخلائق شانى
فقد الرجاء ، وقلةُ الأعوان
عنى وإن سبقت به قدمان
بالدر عند تماثل الميزان
مسعاتيه ، فهذى به ، وقلانى

تجربة نقدية (١): في ديوان المتنبي نجد - كما نرى في الأبيات السابقة - بنائيات شعرية متنوعة، منها ما هو منسوخ من ديوان غيره، ومنها ما هو منسوخ من ديوان المتنبي نفسه، ومنها ما هو منسوخ من ديوان غيره، ومنها ما هو منسوخ من ديوان المتنبي نفسه. هذه قصيدة للبارودي تنتمي للعقد السابع من القرن التاسع عشر (١٨٦٥) وموضوعها كما أشارت المقدمة يذكر سفره مع الجند المصري إلى جزيرة إقريطش حين خرج سكانها عن الطاعة . ويعرض بأثنياء في نفسه . ويتشوق إلى مصير " .. وهي إذن من عناصر ثلاث .

هذه القصيدة هي منسوخة من ديوان المتنبي .
التكوينات البنائية : البيت الشعري يتكون من أربعة مقاطع .

هي من حيث الشكل تتكون من أربع مقطوعات : الأولى والثانية يتكون كل منهما من عشرة أبيات . والثالثة والرابعة تتكون كل منهما من ثمانية أبيات .. وهو تصور خاص لم يتبعه المؤلف في الديوان . ولكنه منظور نقدي يتبع مقاطع ..

المقطوعة الأولى : تكوينات من حركة الجند في ظلمة الليل .. وأشكال السلاح

وتردد مفردات تجمع بين عناصر الليل والجند والسلام .

مصدر لغوي أول : الكرى - الأجفان - السرى - الليل - العين - الظلماء

- اللجة - الفضاء - البدر - السماء - البحر - السرى - الليل - العين - الظلماء

تختلط مفردات العين والأجفان بالليل والفضاء والبدر ..

مصدر لغوي ثاني : الكرى - الأجفان - السرى - الليل - العين - الظلماء

- اللجة - الفضاء - البدر - السماء - البحر - السرى - الليل - العين - الظلماء

مصدر لغوي ثاني : الفرسان - النواذب - المقالع - الربا - أسنة - المران

- الطوفان - مرباة - ثنية - يسهل - أجرد - أحراس - السلطان - البيض

- الخرصان - الرماح - الخيل - الطراد - الرهان ..

وتختلط فيه حركة صفات الجند بالسلاح بالطبيعة .

مصدر لغوي ثالث : الكرى - الأجفان - السرى - الليل - العين - الظلماء

والمحوران يلتقيان في أكثر من حركة تحدهما أفعال المقطوعة : أخذ - هنا

- تستبين - تسرى - تسمو - تستن - يسهل - تصيح - يهتف - ملثوا -
يبين .

ومشتقاتها : معاهد - السرى - منشور - ضارب - اشتعال - تهدار -
عزف - ترنج - ناظر - التماع - أكدر - مريضة - أشكل - درانى -
واقفة - .

والأفعال تتردد فيها حركة حرف السين والشين والصاد والضاد .

وتتردد أفعال ماضية ومضارعة ومصادر وأسماء فاعلين وأسماء مفعولين .
وهو تراوح لا يوقف الحركة عند حد زمنى واحد .. وإنما يمزج بين عناصر
زمنية عدة تجمع بين دلالة المعنى .. ودلالة المعاصرة - ودلالة الاستقبال .
وتعين على توظيف الاشتقاقات بما يتوافق مع الحركة الزمنية التوافقية .

المقطوعة الثانية : حركة زمنية تالية : وهى حركة ما بعد الإصباح . عشرة
أبيات تالية .

محور لغوى أول : السلاح - ألسن - أسنة - الركاب - الأرسان -
محور لغوى ثانى : الصباح - النيران - الصبح - ريا - محانى -
الجيال - الوهاد - الماء - موارد - منازل - النفس - السماء - روية -
الأرض - النماء - الألوان - عذار - عنان .
المحور الثانى لا يتوافق مضمونياً مع المحور الأول . فى المقطوعة الأولى .
وفى المقطوعة الثانية ..

هناك تناقض بين الفقرة الثانية من البيت الأول . والفقرة الأولى من البيت
الحادى عشر (الأول فى المقطوعة الثانية) .

وهنا السرى بأعنة الفرسان ١/٢/٨ .

وضعوا السلاح إلى الصباح . وأقبلوا ٢/١/٨ .

يقول الشارح فى الأولى : " أن الليل لف الناس بأستاره فناموا . أما الشاعر
وجنده فقد هفا سير الليل بأعنة خيلهم ، أى زابلهم الكرى وجفاهم النوم ،

لأنهم فى حالة حرب وقتال . فالناس فى أمن ورخاء والمحاربون فى حرب وشقاء .

ويقول فى الثانية . " وضع المحارب سلاحه فى عدوه : أى جالده وقاتله . ووضعا السلاح إلى الصباح : أى قاتلوا بأسلحتهم طوال الليل .. "

والتناقض الحادث ينبع من وحدة الحركة الزمنية . فالمقطوعة الأولى لاستغرق زمناً كما لانشعر مع بدء المقطوعة الثانية بأنها تنتقل لموقع زمنى آخر . ومن ثم فإن الزمن فى الأولى هو الزمن فى الثانية فكيف يحدث الحدثان فى وقت واحد " السرى " و " الحرب إلى الصباح " خاصة وأنه يؤكد ذلك فى البيتين .

هذا فضلاً عن ضعف التركيب البنائى فى البيتين . فالمعنى فى البيت الأولى لا يستقيم بين الشطرين .. ولا يقدم صورة بليغة عن المفارقة الحادثة من هناء الناس بالنوم وفزع الجند للسرى للحرب . كما لا يقدم البيت الحادى عشر تركيبية بنائية تتوافق مع حالة الحرب طوال الليل " وضعوا السلاح إلى الصباح " . فضلاً عن الإيحاء الذى تتركه كلمة " وضع " التى تفيد " الترك " ولا تفيد " الاحتدام " .

والضعف البنائى نشعره بحدة فى كثير من " التراكيب الخيالية " غير المتوافقة .. فتقديم القنيدة يذكر سفره مع الجند المصرى إلى جزيرة " أقریطش " وهذا يعنى أو يوحى بأن الصورة التالية لرحلة الطريق .. وإذا بنا نفاجاً بأنها ليست كذلك ولكنها وصف لموقعة ليلية .. وعندما نعلم أن الثوار هم " سكان أقریطش " نعلم أيضاً أن الحرب النظامية كانت من طرف واحد وأن الطرف الثانى هم ثوار غير نظاميين .. ومن هنا نقع فى مأزق " التوافق المعنوى " بين الأبيات .. إذ كيف تستغل أسنة الرماح " ثم تهدار سامرة " و " عزف قيان " مما جعل الشارح يقول " لعل المعنى ... " وكيف يواجه الثوار من غير الجند النظاميين بهذا الوصف الموهل فى استخدام الفرسان والخيول والحراس والسيوف والدروع حتى يغير وجه السماء

وتعرض السماء ويشكل البحر وتلتقى الرماح والخيول متأهبة متحفزة لطراد يوم كريمة . كيف تبدو الصورة على هذا النحو .. وكيف يمكن أن تقبل منطقياً تقابل جيشين إلا أن تتصور سكان الجزيرة من الجند المحاربين المزودين بالعدة والعتاد .

وهذا الخلل الحادث في التركيب البنائي في المضمون أدى إلى حدوث خلل في التركيب البنائي للشكل .. ومن ثم ضعف الطالب والمطلوب .

المفردات المختارة قلقة في مواضعها ، ولا تكاد تتوافق الصور فيها ومن ثم لاتطمئن إلى مكانها .

ولأن الخيال قد جنح بالمؤلف فبالغ حيث لا ينبغي أن يفعل ، فقد ترتب على ذلك هذا النوع من التصوير المورغل في المبالغة .. والذي سرعان ما يتخلص منه وكأنه يلقي عن نفسه عبئاً أثقل كاهله . وينتقل منه إلى الحنين إلى مصر . بتخلص غير حسن .

فَرِغَتْ .. والقصد هنا الخيل التي كانت قد توجهت من الحرب وفزعته إلى الفرار وهو وصف لم يكن من صفات خيل المحاربين المتدربة .. وهو يرجع امتناعها على مقودها لشدة حنينها للعودة إلى مصر .. وهنا يخلص إلى وصف حنينه لمصر .

ونقف عند هذه العبارة "إنما تحنانها شجن من الأشجان" . مامعناها إلا أن يكون من باب "التمحل" وعدم إتقان التعبير عن المعنى .. هل يمكن أن يكون التحنان نوعاً من الشجن . ؟ وماهى أنواعه الأخرى إن وجدت . ؟ وألا يحمل لفظ التحنان مدلول الأسى والشجن . ؟ فما الداعي لتكراره . ؟ ، الأ حاجة من حاجات القريض .

ويبدو أن الشارح قد أبقى على الشاعر إلا أن يكون مصيباً ، فأخذ يتلمس

لمعانيه المعاذير ، ويحاول تخريجها بما لايجرح انسيابية المعنى وتدقق الفكرة .. ومع ذلك فأنت تشعر بشيء من عدم التوافق الحادث عند الخروج من كلمة أو من جملة أو من فكرة لأخرى .

ولعل أول ملحظ في المجموعة الثالثة "قصعيدها أحوى النبات" ضعف انتقاعات المفردات للدلالة على المعنى . فالبيت السابق مباشرة يقول : بلد خلعت بها عذار شبيبتي " .. وهذا يعنى أنه عندما غادره كان قد طرح الجد جانباً وأخذ في اللهو . وانتقاد لنوعى الحب والغزل . وهذا لايتوافق مع وصفها الرومانسى الذى يأتى فى البيت التالى مباشرة وصف النبات وسرح الظلال ، وزهرها المتدانى .

وعندما يقول " فارقتها طلباً لما هو كائن " لاتستقيم العبارة التى يشرحها الشارح على أنه " المقدور الواقع" وهو أيضاً من باب تأويل المفرد بما ليس عليه فى الحقيقة .

ويخلص من هذه المعانى مباشرة إلى شكوى الدهر .. وهذا لايتوافق مع الطبيعة النفسية لمن "خلع عذار شبيبته وطرح فى يمن الغرام عنانه" . إذ أنه بهذا قادر على مواجهة صروف الدهر والحسد . ولكنه رغم ذلك يتصور أن الزمان قد حمل عليه . وأن خللته قد نقموا عليه . وهو يهنىء الدهر الغيور !! برحيله عن مصر ، ويدعو صروف الزمان أن تهدأ . وهذا تصور مبالغ فيه جداً خاصة وأنه لم يصف موقعة كان فيها "قلب الأسد" .. أو فازساً مفواراً له باعه فى الحرب والطرده . وليس هناك مبرر واحد لشكوى الدهر عنده .. أو على الأقل كما يرد فى القصيدة . كما أنه لم يخرج قائداً لجيش تاتى عبارة" أعلمت الزمان مكائى" فى البيت التالى مباشرة .. وإن كان يشير فى البيتين التالين إلى سبب احساسه بالتذمر من الدهر وسبب خوفه من الوشاة والحاسدين وغيرهم .

والمفردات المنتقاة فى هذا المقطع على كثرة مدلولاتها لا يحدث منها توافق معنوى يستقيم معه المعنى . فنحن لانرى سوى علاقات غير قوية بين :

النبات . الزهر . وبينها صيدا وأحوى وسرح وألمى الظلال . ومتدانى .
ثم بين : فارق - تقلب - الأزمان - أجنة - عرضة - الحدثان - نغموا -
الدهر - الغيور - صروف - خاننى - مغيبه - رمانى - غشا - البهتان .

ومعجم المجموعة هذه يخرج من عمود لغوى واحد .. يشكل دائرة دلالية تسلم
المفردة فيه إلى الأخرى مع افتراض صحة المعنى ولا مغالاته التى نراها واضحة مائة
لا تتفق مع نسق المعنى المتواتر منذ البدء .

المقطوعة الرابعة :

وقوامها ثمانى وحدات شعرية . تستقل كل منها استقلالاً شبه تام .. وهى
مما يمكن أن يجرى مجرى المثل .. وهذا يعنى من وجه آخر أنها وحدات لا تتعلق
بشخص ما ، أو زمان ما أو مكان ما .. أو محتوى فكرى ما .
فليجر - مطية - يجرى - رجع - مسعاته - قدمان - سبقت .

هذه دائرة أولى فى وحدات لغوية متوافقة الدلالة المعنوية اللغوية .
نفسه - الشقى - الشيطان - اللثيم - الطبع - العدو - مساعى - أذل -
فقد - قلة - الجهالة - الخسيس - حاسد - هذى - قلائى .

هذه دائرة ثانية فى وحدات لغوية متوافقة الدلالة اللغوية والمعنوية .
كرامة - الصديق - الأخوان - الإنسان - الخلائق - شأنى - الرجاء -
الأعوان - الدر - الميزان - شرف -

وهذه دائرة ثالثة فى وحدات لغوية متوافقة الدلالة المعنوية واللغوية .

وهنا نجد عناصر التوافق بين الدوائر الثلاث وقد ساهمت فى صنع الصيغة
المعنوية المعبرة عن المؤثرات النفسية والبيئية المختلفة .

خلاصة تتعلق بعناصر التكوين البنائى :

. المحاور المضمونية على النسق المقطعى السابق تتكون من أربعة محاور
محور أول فى "السرى" ومحور ثان فى "النزال" ومحور ثالث فى "الحنين" ومحور رابع
فى "شكوى الدهر".

. هناك نوع من التوافق بين الدوائر اللغوية المتوزعة وفقاً لتوزيع محاور
المضمون السابقة وهى على ضعف بعض جوانبها يمكن أن تدل دلالة قوية على
تناسق المقاطع الرأسية (المضمونية) مع المقاطع الأفقية (الدالية). وقد تم التركيز
على هذه المحاور والدوائر فى العلاقات المبينة سابقاً .

* * *